

حول الف ليلة وليلة

بنلم فؤاد افرام البستاني

منحدر زقاق البلاط الى بوابة يعقوب ، بين مدرسة الاحد
الاميركية وتمثال اليازجي ، من عن يسار النازل حذراً على تلك
الطريق المرسوفة بالحصى ، الشاهدة بما اثرت فيها اقدام الاجيال
المتعاقبة ، على انها اقدم ما بقي من طرقات بيروت القرن التاسع عشر ، يقوم
حانوت متواضع ، في احدى زواياه حلاق ، وفي زاوية اخرى سنكري ، وفي
مقدمه بسطة تزدحم عليها اللآليات والاباريق والمسارج والاقاع وسائر مصنوعات
التنك تلمع برأفة في وقع ما يتسلل من اشعة الشمس ، حتى اذا لئت اشعتها
تحول الحانوت الى مقهى يرتاده النشرات من عمال النسيج ، ومستخدمي
الصناعات الوضيعة ، وحمالي المنطقة . فيحتبسون الى الجدران القريبة ، او يقتعدون
الحصير البالي ، يتبادلون التمايلق على احداث النهار بين رشقة ورشفة ، حتى
تأزف ساعة الحكواتي . فيعلو الطاولة الصغيرة ، على كرسي لا سند له ، شيخ
رقيق الجسم ، حليق الذقن ، بارز تقاطيع الوجه ، مكشوف الرأس عن صلعة
برأفة ، يحمل شاربين اثريين ، ونظارتين تركبان ، على قلب ، طُرف الارنبية .
فيتنحج طولاً ويؤاح ، ويبسط على قنباذه المرقع كتاباً دسم الاوراق ينظم منه
بعض الباقات ، ثملاً تقاضيلها الميعة بيديه وعينه وانفه وشفتيه وسائر جوارحه .
حتى يخطرب الكرسي من تحته ، فتضطرب الطاولة ، فتضج ارجاء الحانوت
بالصدية وهتاف الاستحسان . ولا تنتهي الليلة من الألف الا وفي حضي
الحكواتي قُرُشات معدودات حنلاً بكده وعرق جبينه . وينصرف السامعون
على امل استئناف الليلة الآتية ، هازئين ، ولا هز : صاحب المنقود ، برؤاد
السينا وسائر الملامهي المصرية .

فاذا كانت بيروت لا تزال رانجة فيها سرقُ الف ليلة وليلة ، فكيف
بسائر المدن الشرقية ؟ كيف بالقرى النائية ، والساكنر المنفردة ، لا تتلى

عامتها الأجل هذه القصص الشعبية ، على توالي القرون ؛ فلا تكاد ترضى عنها
بديلاً ، لو وُجد هذا البديل . قد يكون من اسرار هذا الرواج التقليد
الممكن في السامعين ، وقد تكون دقة الوصف في الكتاب ، وقد يكون
اهتمامه بتصوير الطبقات الوضيعة خاصة ، ومن ينبجج فيها من شطّار اللصوص
ونوابغ المحتالين ، ومن يختلط بها من الامراء المتدريشين ، وقد يكون تأثر
بعض حكاياته بالحوارق كما في الجن والغاريت والسحرة والعرافين . وقد يكون
كل هذا ممّا . ألا ان الواضح الظاهر انما هو هذا الرواج المتابع لألف ليلة
وليلة ؛ رواج لا يدانيه سوى شهرة الكتاب لدى ادياء اوربة ، وأهتية في
نظر المستشرقين ، حتى لا يشذ عن هذا التقدير الشامل ألا ادياء العربية ، وهم
الأجدد بدرسه ، والأولى بالتعنى في تفصيل موضوعاته وفنونه وأفكاره .
ألا أنهم جُبروا ، على الأرجح ، بما في اساليبه من ضف ، وما في تعابيره من
ركاكة ، فصدفوا عما وراء ذلك ، وما زلنا نؤخذ بحجل المظهر ، وبهزج العرض
حتى ليفضل الواحد متناً مقامات الحريري واساجيع الزمخشري . وما كنا يوماً
من دُعاة إهمال الشكل او الإعراض عن حسن الأداء . وغني عن البيان ان
الأثر الفني لا يتكامل إلا اذا قرن جمال الجهر بحجل العرض فتكافأ
وتناسبا . على ان المبني الضئيل لا يمنع جمال المعنى ، لو وُجد ، كما ان زخارف
الزبي لا تغني عن معنى غير موجود .

نفهم هذا ، فلا نستغرب من اندره جيد - وهو من الميجين بألف ليلة
وليلة - ان يستغرب ازدياء الادباء المصريين هذا الكتاب العالمي . وهو انما
يقراه في ترجمة ماردروس الرائعة ، وهم يتوقفون لدى ما في اخراجه من فقر
بالفردات وضعف في التعبير . أو لم يقيم منهم مؤخرًا من أزرى على واضعه في
مجلة «المكتطف» ، بما لم يكن منتظرًا من أديب له سهم قالح في الفن القصصي .
واما المستشرقون فهتهم درس الكتاب تاريخيًا ، واجتماعيًا ، وادبيًا ،
وقد وقفوا عليه الابحاث العديدة ، والمناقشات المستطيلة حتى حفلت المكتبة
الاستشراقية بما لا يقل عن مائتي مؤلف تتوالى في « ألف ليلة وليلة » ترجمة ،
وتعليقًا ، ودرسًا منذ اكثر من قرنين ؛ وكان آخرها ما يهتنا وصفه الآن .

وهو كتاب الاستاذ نيكيتا إليسيف Nikita Elisséeff ظهر باللغة الفرنسية في منشورات «المعهد الفرنسي في دمشق» سنة ١٩٤٩^{١)} ؛ وغايته تصنيف موضوعات الف ليلة وليلة وفكرها وفنونها وسائر العناصر القصصية فيها . فاقبل على الكتاب يُنفق الأشهر بل السنوات في درس إطاره وتحليل اجزائه ، وترتيب سياقاته ، وتحديد ليلاته ، وتتبّع عناصره ، من لغة الى لغة ، ومن بيئة الى بيئة ، ومن عصر الى عصر ، من الميراثمة الهندية العريقة ، الى الصيغة الفارسية ، الى النقل العربي ، قبل القرن العاشر ، الى ما دخل في الكتاب بعد ذلك من حكايات واساطير وخرافات من معادر متنوعة اسلامية ومسيحية ويهودية ، عربية واجنبية ، دُرّنت في العراق ، والشام ، ومصر ، حتى اواخر عهد المماليك .

وكان لابد من الاطلاع على آثار السابطين في هذا الموضوع . ومشكلة اصل «الف ليلة وليلة» على اقلام المستشرقين منذ اوائل القرن الماضي ، منذ ان وصف سيلستر دي ساسي اولى طباعته في كلكترا ، الظاهرة سنة ١٨١٦ ، فارتأى ان للكتاب عدّة مؤلفين ، وشكّ في قول المسعودي بنقله عن الفارسية . فردّ عليه دي هاتر . وتوالى المناقشات ، حتى كاد يستقرّ الرأي على ان الكتاب مجموعة قصص متباينة المنشأ زماناً ومكاناً ، متعدّدة المؤلفين ، متنوعة الغايات . فدفع الاستاذ إليسيف الى مراجعة ما لا يقلّ عن ١٣٠ بحثاً في الموضوع ، فضلاً عن طباعت الكتاب وترجماته ؛ وعرض نتائج ابحاثه في هذا المؤلف القيم الذي زاه يمتلئ مركزاً خاصاً لا في «تاريخ الف ليلة وليلة» فحسب ، بل في تاريخ الدروس القصصية الشعبية اجمالاً .

يبدو الكتاب على ثلاثة اقسام : الدروس ، التصنيف ، الجداول والفهارس . اما قسم الدروس فيتناول ، بعد المقدمة ، ستة فصول خصّ المؤلف اولها بالبحث في اصل الف ليلة وليلة ، عارضاً خلاصة المناقشات في ذلك على نحو ما ألعنا اليه سابقاً ، مضيئاً اشارات مفيدة الى ما قد يصلح معالم لتأريخ بعض

1) Nikita Elisséeff, *Thèmes et motifs des Mille et une nuits. Essai de Classification*. [Institut français de Damas.] In. 8°, 242 pp., avec une carte des longueurs relatives des contes. Beyrouth, 1949

الحكايات في الكتاب ، كالتلخيصات الى الاحداث التاريخية او الى بعض امراء مصر ، والشواهد الشعرية المقصدة إقطاعاً في كثير من الحكايات ، وهي في اكثرها لشعرا . لم يتأخر زمنهم عن القرن الرابع عشر .

وتناول الفصل الثاني إطار الكتاب : حكاية الملك المتعود قتل كل امرأة يتزوجها ، وامراته شهرزاد ، وكيف تخلصت من القتل بفضل حذتها ، واختراعها اسلوب الحكايات ، وقطاعها مجرى الحديث عند الموقف الحرج . ولا شك في ان العرب نقلوا هذا الإطار عن الفرس ، وان يكن من طبيعة القصص الهندي في الماهيات والمبهمات والپانتشاتنترا تداخل الحكايات بعضها في بعض ، والانتقال من الواحدة الى الاخرى دون الخروج عن الإطار الاصلي ، على نحو ما نرى في كاليه ودمنة ، وهي حلقة من سلسلة الپانتشاتنترا :

— لا تفعل هذا وألا اصابك ما اصاب فلانا .

— وكيف كان ذلك ؟

او ما تقول شهرزاد في آخر الحكاية :

— ما سمعت الآن ليس بشيء بالنسبة لما ستسمع ا

— وكيف ذلك ؟

وهكذا ينتقل الحديث من حكاية الى حكاية ، على تلك العلاقة الروائية . وينتقل المؤلف في الفصل الثالث الى درس الحكايات نفسها في مختلف انواعها : الاصلية منها ، تلك التي كانت دون شك ، في « هزار افسانه » الذي يذكره المسعودي ، والدخيلة المؤلفة في بغداد ، ثم في مصر . ولا يتسع الوقت للإشارة الى كل منها وإن لماماً .

ثم يعرض لخطوط الكتاب وطبعاته في كلكتا ، وبولاق ، وبيروت ، والقاهرة ، وبرسوا . ويتبسط في وصف ترجماته ، وفي طبعها ترجمة غالان Galland الفرنسية الظاهرة في باريس من السنة ١٧٠٤ الى السنة ١٧١٣ في اثني عشر مجلداً ، والتي استعان في الحصول على مادة مجلداتها الاربعة الاخيرة برجل ماروني من حلب اسمه حنا ، عرفه في باريس سنة ١٧٠٩ ، وكان قد انتهى من طبع المجلد الثامن ، ولم يبق لديه من النصوص ما يترجمه . فاقام

حنأ يكسب له الحكايات بالعربية ، وهو ينتقلها حتى اتمّ المجموعة ، وفيها من حكايات حنأ ما لا يُعرف في طبقات الكتاب البولاقية والهندية امثال : علا. الدين والقانوس العجيب ، علي بابا ، سيدي نعمان ، وغيرها . ويرجع على سائر الترجمات عن الاصل فيذكر اربع عشرة منها الى اللغات الفرنسية والانكليزية والالمانية والدانمركية والروسية . ومن المفيد ان نضيف الى ذلك ذكر الترجمة الايطالية الشائقة التي قام بها مؤخرًا الاستاذ غبريالي .

وينتهي الى القسم الثاني من الكتاب وهو التصنيف ، تصنيف الموضوعات والفكر وفنون السرد وسائر العناصر القصصية ، يرتبها على الحروف الابجدية بوعبي تم ، وانتباه دائم ، فيخدم الكتاب الخدمة الجلي ، وكأنه يفهرسه بكامله ، ويضع هيكله مجردًا امام الباحثين . حتى اذا تمّ له العمل ، وهو اهمّ اقسام الكتاب ، انتقل الى ما سمناه بالقسم الثالث دائين به على الجداول والفهارس .

فبدأها بمجدول المقابلات . اورد فيه عناوين الحكايات جميعها ، وهي تبلغ ١٦٨ عدا ما تداخلها من اخبار ثانوية ، وقابل بين مواضعها في اربع عشرة طبعة وترجمة . وارفق كل ذلك بملحق نشر فيه نصوص المسودي وابن التديم والمقرئ في كتاب «الف ليلة وليلة» ، ثمّ بخطّط واسع مثل فيه نسبة الطول بين ليالي الكتاب وفقًا لطبعة كلكتوتا الثانية .

وبعد ان نشر نبتًا باسماء المراجع والمآخذ البالغة ١٣٠ باللغات العربية ، والفرنسية ، والانكليزية ، والايطالية ، والالمانية ، والروسية ؛ وفهرسين باسماء الاعلام والاماكن ؛ خصّ بابطال الف ليلة وليلة وسائر اشخاصها جداولًا مفيدًا جدًا رتبّه على الابجدية وتنشع مآثر كلّ منهم في مختلف الحكايات .

هذا عرض سريع لكتاب الاستاذ إلسيف النفيس . وهو في نظرنا اوجز من ان يستوعب خصائصه ، واخصر من ان يحيط بفوائده جميعاً . ولعلّه يدفع بعض ادبائنا الى الاطلاع عليه ، والافادة منه ، والاقتداء به ، فتقلّ في ابحاثنا ودروسنا الاساليب العالامية، ونستبدل بها شيئاً من دقة الموضوعية ، وترصن العلم !